والعامة ولا ختم ولا تغشية على الحقيقة وإنما المراد بهما أن يحدث في نفوسهم هيئة تمرنهم على استحباب
الكفر والمعاصي واستقباح الإيمان والطاعات بسبب غيهم وانهماكهم في التقليد وإعراضهم عن النظر
الصحيح فتجعل قلوبهم بحيث لا ينفذ فيها الحق وأسماعهم تعاف استماعه فتصير كأنها مستوثق منها بالختم
وأبصارهم لا تجتلي لها الآيات المنصوبة لهم في الأنفس والآفاق كما تجتليها أعين المستبصرين فتصير
كأنها غطي عليها وحيل بينها وبين الإبصار وسماه على الاستعارة ختما وتغشية أو مثل قلوبهم ومشاعرهم
المؤوفة بها بما ضرب الحجاب بينها وبين الاستنفاع بها ختما وتغطية وقد عبر عن إحداث هذه الهيئة بالطبع
في قوله تعالى أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وعلى سمعهم وأبصارهم وبالإغفال عن قوله ولا تطع من أغفلنا
قلبه عن ذكرنا وبالإقساء في قوله وجعلنا قلوبهم قاسية وهي من حيث أن الممكنات بأسرها مستندة إلى الله
واقعة بقدرته أسندت إليه ومن حيث أنها مسببة مما اقترفوه بدليل بل طبع الله عليها بكفرهم وقوله
ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم وردت الآية ناعية عليهم شناعة صفتهم ووخامة عاقبتهم
واضطرب المعتزلة فذكروا وجوها من التأويل الأول أن القوم لما أعرضوا عن الحق وتمكن ذلك في قلوبهم
حتى صار كالطبيعة لهم شبه بالوصف الخلقي المجبول عليه الثاني تمثيل حال قلوبهم بقلوب البهائم التي
خلقها الله تعالى خالية عن الفطن أو قلوب مقدر ختم الله عليها ونظيره سال به الوادي إذا هلك وطارت
به العنقاء إذا طالت غيبته الثالث أن ذلك في الحقيقة فعل الشيطان أو الكافر لكن لما كان صدوره عنه
بإقداره تعالى إياه أسند إليه إسناد الفعل إلى السبب الرابع أن أعراقهم لما رسخت في الكفر
واستحكمت بحيث لم يبق طريق إلى تحصيل إيمانهم سوى الإلجاء والقسر ثم لم يقسرهم على غرض التكليف عبر عن تركه
بالختم فإنه سد لإيمانهم وفيه تعريض على تمادي أمرهم في الغي وتناهي انهماكهم في الضلال والبغي الخامس
أن يكون حكاية لما كانت الكفرة يقولون مثل قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن
بيننا وبينك حجاب تهكما واستهزاء بهم كقوله تعالى لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب الآية السادس تهكما
أن ذلك في الآخرة وإنما أخبر عنه بالماضي لتحققه وتيقن وقوعه ويشهد له قوله تعالى ونحشرهم على وجوههم
عميا وبكما وصما السابع أن المراد بالختم وسم قلوبهم بسمة تعرفها الملائكة فيبغضونهم وينفرون عنهم يوم القيمة صح
وعلى هذا المنهاج كلامنا وكلامهم فيما يضاف إلى الله تعالى من طبع وإضلال ونحوهما وعلى سمعهم
معطوف

٦٣

معطوف على قلوبهم لقوله تعالى وختم على سمعه وقلبه وللوفاق على الوقف عليه ولأنهما لما اشتركا في
الإدراك من جميع الجوانب جعل ما يمنعهما من خاص فعلهما الختم الذي يمنع من جميع الجهات وإدراك
الأبصار لما اختص بجهة المقابلة جعل المانع لها عن فعلها الغشاوة المختصة من تلك الجهة
وكرر الجار ليكون أدل على شدة الختم في الموضعين واستقلال كل منهما بالحكم ووحد السمع للأمن عن
اللبس واعتبار الأصل فإنه مصدر في أصله والمصادر لا تجمع أو على تقدير مضاف مثل وعلى
حواس سمعهم والأبصار جمع بصر وهو إدراك العين وقد يطلق مجازا على القوة الباصرة وعلى
العضو وكذا السمع ولعل المراد بهما في الآية العضو لأنه أشد مناسبة للختم والتغطية وبالقلب
ما هو محل العلم وقد يطلق ويراد به العقل والمعرفة كما في قوله تعالى إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب
وإنما جاز إمالتها مع الصاد لأن الراء المكسورة تغلب المستعلية لما فيها من التكرير وغشاوة رفع
بالابتداء عند سيبويه وبالجار والمجرور عند الأخفش ويؤيده العطف على الجملة وقرئ بالنصب على
تقدير وجعل على أبصارهم غشاوة أو على حذف الجار وإيصال الختم بنفسه إليه والمعنى وختم على أبصارهم
بغشاوة وقرئ بالضم والرفع وبالفتح والنصب وهما لغتان فيها وغشوة بالكسر مرفوعة وبالفتح
مرفوعة ومنصوبة وعشاوة بالعين المعجمة ولهم عذاب عظيم وعيد وبيان لما يستحقونه والعذاب
كالنكال بناء ومعنى تقول أعذب عن الشيء ونكل عنه إذا أمسك ومنه الماء العذب لأنه يقمع
العطش ويردعه ولذلك سمي نقاخا وفراتا ثم اتسع فأطلق على كل ألم فادح وإن لم يكن نكالا أي
عقابا يردع الجاني عن المعاودة فهو أعم منهما وقيل اشتقاقه من التعذيب الذي هو إزالة العذب
كالتقذية والتمريض والعظيم نقيض الحقير والكبير نقيض الصغير فالعظيم فوق الكبير ومعنى
التوصيف به أنه إذا قيس بسائر ما يجانسه قصر عنه جميعه وحقر بالإضافة إليه ومعنى التنكير
في الآية أن على أبصارهم نوع غشاوة ما يتعارفه الناس وهو التعامي عن الآيات ولهم من الآلام
العظام نوع عظيم لا يعلم كنهه إلا الله ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر لما
افتتح سبحانه بشرح حال الكتاب وساق لبيانه ذكر المؤمنين الذين أخلصوا دينهم وطابقت فيه